طَبَقَات الحُفَّاظ

لجلال الدِّيْن السُّيُوطِيّ[1]

اهتمت الحضارة الإسلامية اهتماماً عظيماً بتدوين التاريخ -بشقَّيْه: تاريخ الحوادث وتاريخ الرجال- قَلَّ أن تدانيها في ذلك حضارة من الحضارات أو أمة من الأمم،[2] ولقد افْتُنُّوا في ذلك افتناناً يدعو إلى الدهشة والإعجاب، فألفوا في التاريخ السياسي الأسفارَ الطوال، وبسطوا القول في الحديث عن الملوك والخُلَفاء، والأفراد، والحروب، ومظاهر الحضارة، ودرسوا مجتمعاتهم من النواحي المختلفة،[3] كما صنفوا في تاريخ البلدان، وترجموا من وَرَدها من الصحابة والتابعين، وتراجم من نشأ فيها وتوطنها ونُسِبَ إليها أو إلى نواحيها، ومَن دخلها من غير أهلها غازياً أو تاجراً أو طالباً للعلم.

ومما يدعو إلى الإعجاب والإكبار أن علماء المسلمين ألفوا في طبقات شتى من الناس على اختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم واتجاهاتهم وصِفَاتِهم، ولقد كان رُوَاة الحديث من هؤلاء الذين عُني بهم فريقٌ من المصنفين عناية خاصة، بل ظهرت عناية المسلمين بتراجم هؤلاء الرجال منذ العصر الأول للإسلام، فتحدثوا عن فضائل بعض الصحابة مما مُلئت به كُتب الحديث، وكان هذا داعيًا للمؤرخين بعد ذلك لأن يحتذوا هذا الحذو ويقفوا على فضائل التابعين ومن بعدهم.

---

[1] هو: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين، الخضيري، المعروف بـــ "جلال الدين السيوطي" (849هـ/ 1445م- 911هـ/ 1505م): محدثٌ، حافظ، فقيه، مفسر، لغوي، نحوي، مؤرخ، أديب، بلاغي، مشارك في علوم عدة.

انظر: ابن العماد: **شذرات الذهب** 51/8: 55، الزركلي: **الأعلام** 301/3: 302، كحالة: **معجم المؤلفين** 128:131/5، **الموسوعة العربية الميسرة** ص 1059، أحمد عطية الله: **القاموس الإسلامي** 22:625/3

[2] استفدنا في بحثنا هذا من مقدمة الأستاذ علي محمد عمر لتحقيق طبقات الحفاظ.

[3] وهذا جلي في تواريخ المسعودي والطبري وابن كثير وابن الجوزي وابن خلدون والمقريزي وغيرهم.

ولقد كان من نتائج اتساع الحركة العلمية وكثرة رواية الحديث أن رأى العلماء أنفسهم بين أصناف متعددة من الرواة، فبحثوا عن كل راوٍ وحللوه، وتعددت الآراء المختلفة في التجريح والتعديل، فجُمِعَت الأخبار في نقد الرواة وبيان حالهم من حيث قبول عدالتهم وضبطهم، ودونت سيرته ومولده ووفاته ورحلته وشيوخه وتلاميذه ومسموعاته ومروياته ومؤلفاته -إن كانت له مؤلفات- ومدى دقته في الرواية ومدى اعتماده في الرواية على الحفظ أم الكتاب، ومقياس تورعه وتدقيقه في رواية ما يحفظ، إلى غير ذلك، فعلوا ذلك لارتباطه بالمسائل المتعلقة بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأصول التشريع وفروعه، وقد قال أحدهم: "إنَّ هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم."[4]

وقدمت الحضارة الإسلامية بذلك بين يدي النقد التاريخي عملا قيما لا يعرف له الناس مثيلاً في آداب الأمم الأخرى. وقد رُتبت معظم الكتب التي أُلِّفَت في هذا الميدان إما طبْقاً لأجيال المحدثين والرواة، أو طبقاً لمواطنهم وبلدانهم، أو طبقاً للترتيب الهجائي لأَسمائهم. وكتاب "طبقات الحفاظ" للحافظ (خاتمة الحُفَّاظ) جلال الدين السيوطي، من هذه المؤلفات التي رُتِّبَت التراجم فيه طبقاً لأجيال المحدثين وطبقاتهم.

و"الحافظ" في اصطلاح المحدثين هو من توسع في رواية الحديث ومعرفة فنونه بحيث يكون ما يعرفه من الأحاديث وعللها أكثر مما يجهل، وقد حدده بعض أهل العلم بحفظ 100.000 حديث رواية ودراية حِفظا وفَهما.

بَنَى السيوطي كتابه على كتاب "تذكرة الحفاظ"[5] للحافظ شمس الدين الذهبي (- 748هـ/ 1348م)[6] التي احتلت أهمية كبيرة في التاريخ العلمي عند المسلمين، وبنى عليها الكثيرون مؤلفات أُخَر طلبا للكمال لهذا الكتاب الهام، كأبي المحاسن الحُسَيْنِيّ (- 765هـ/

---

[4] هذا قول منسوب إلى محمد بن سيرين وإلى مالك وغيرهما رحمهما الله تعالى، رواه عنهما وعن غيرهما غير واحد من أهل العلم. انظر: الذهبي: **سير أعلام النبلاء** 611/4، 343/5، ابن فرحون: **الديباج المذهب** 21/1، ابن أبي يَعْلَى: **طبقات الحنابلة** 38/2، وانظر: **فتح المغيث** للسخاوي 326/1 (ط. دار الكتب العلمية، بيروت).

[5] نلفت نظر القارئ أن الكثير من السلف يعبر عنها باسم (طبقات الحفاظ) أيضاً، وهذا كثير في تعبير الحافظ ابن حجر عنها في لسان الميزان (مثلاً ج 1 الترجمة 701، 1120،... وغيره، بل لعلنا لا نجد من لا سلف من سماه بتذكرة الحفاظ، فينبغي أن لا يُخلط بين طبقات الحفاظ للذهبي وطبقات السيوطي.

[6] سبق تقديم بحث عن تذكرة الحفاظ في هذا الباب.

1364م)، وتقي الدين ابن فَهْد (-871هـ/ 1467م)،[7] والسيوطي في ذَيْلٍ صنفه يُكمل به الحفاظ من حيث وقف الذهبي إلى عصره، ثم عاد فضم إلى هذا الذيل تراجم أخر ولخص الكتاب،[8] فكان كتابه "طبقات الحفاظ."[9]

لخص السيوطي في "طبقات الحفاظ" تذكِرَة الذهبي وأتمها إلى عصره، فجمع فيها من يُرْجَع إلى اجتهادهم في توثيق الرواة وجرحهم وتضعيفهم وتصحيح مروياتهم، ورتبها على أربع وعشرين طبقة تبدأ بالطبقة الأولى طبقة الصحابة، وتنتهي الطبقة الأخيرة بشيخ الإسلام الحافظ الشهير ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 853هـ.

وقد احتوت كل ترجمة -غالباً- على اسم الحافظ وكنيته ونسبه،[10] ثم بيان أهم شيوخه، وأهم أصحابه، وبيان تاريخ وفاته -وقد يذكره سَنَة مولده أحياناً- وسياق بعض الأخبار عن الحافظ وشيء من مؤلفاته، وبعض أقوال العلماء فيه مما يكشف عن مبلغ علمه وعدالته، وشيء مما قيل فيه من عدالة وثناء، كل ذلك في إيجاز، فلم تتجاوز غالب تراجمه نصف الصفحة من القطع المتوسط. ولم يتقيد السيوطي بما في تذكرة الذهبي فجاء فيه بآراء ونقول ليست فيه،[11] فقد كان السيوطي يختار ويؤلف أيضاً، مما لا يُستغنى معه عن أي من الكتابين.

والكتاب يقدم للقارئ موسوعة صغيرة الحجم واسعة المجال عبر تسعة قرون من تاريخ الإسلام، تعرضت لأكثر من ألف ومائة من عيون أعلام الأمة، يقدم عن كل منهم فكرة موجزة مفيدة، ومثالاً يُحتذى.

---

7 وكذا اختصرها ابن عبد الهادي وغيره.

8 اشتمل ذيل السيوطي على تذكرة الحفاظ على خمس عشرة ترجمة، توزعن على أربع طبقات (22:25)، أما ما يقابلها في طبقات الحفاظ فثلاث طبقات (22:24) أثبت فيها نص الذيل المفرد بحذافيره دون تغيير لكنه أضاف إليهم تراجم أخرى في هذه الطبقات، وبهذا أغنت طبقات الحفاظ تماماً عن الذيل المفرد إلا لغرض المقابلة بين الكتابين أو مراجعة لفظ قد يتطرق إليه الشك.

9 طُبِعَت هذه الذيول الثلاثة مع تذكرة الحفاظ في مجلد ثالث مكمل للكتاب مع تعليقات نفيسة للشيخ أحمد رافع الطهطاوي علق فيها على الذيول الثلاثة.

10 وقد استبعد السيوطي الرمز لمن رُوِيَ لهم من أصحاب الكتب الستة، وهو ما التزمه الذهبي.

11 كما وجدنا ترجمة ابن الجارود سقطت من طبقات الحفاظ وهي مذكورة في التذكرة، ولا نجد لذلك تفسيراً إلا أن يقال لم تكن في نسخة السيوطي من التذكرة، والمقام يحتاج لبحث.

ولقد صَوَّرَت "طبقات الحفاظ" مقاييس الثقافة في العالم الإسلامي في كل فترة من الفترات التي تناولتها، واتجاهات العلماء الدراسية واهتماماتهم العلمية في العلوم المختلفة، وطُرُق التدريس والإملاء والمناظرة والمذاكرة، والحلقات العلمية، وأماكن الدراسة في المساجد والجوامع والبيوت والربط، والمدارس المعنية بتدريس مذهب أو مذهَبَيْن أو المذاهب الأربعة في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

كما حَفِظَ لنا الحافظ السيوطي في كتابه عددا هائلاً من أسماء الكتب ووصفها مع تزويد الدارس بالمعلومات المتعلقة بها مما يَمكن أن يشكل فهارس مكتبية (ببليوغرافيا) ضخمة. ولقد حَظِيَ الكتاب بتحقيق علمي طيب قام به الأستاذ علي محمد عمر[12] الذي حقق الكتاب عن نسخة مكتبة مصطفى فاضل بدار الكتب المصرية (رقم 59 تاريخ م)، ونسخة المكتبة التيمورية (رقم 473 تاريخ –تيمور) فجاء تحقيقاً جيداً، أقام النص وصححه، وضبط كثيراً من أعلامه، وأدَّى للكتاب حقه، مذيِّلاً بفهارس الأعلام، والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأشعار، والقبائل والأمم والفِرَق، والأماكن والبلدان والمياه، والأيام والوقائع والحروب، والكتب، وقامت بنشره مكتبة وهبة، القاهرة، 1393هـ/ 1973م، في 717 صفحة، من القطع المتوسط، احتل نص الكتاب منه 548 صفحة.

12 د. علي محمد عمر: محقق، اهتم بتحقيق التراث الإسلامي، وعمل بـــ"مركز تحقيق التراث" بدار الكتب المصرية، امتازت أعماله التحقيقية المنشورة بالدقة والأمانة العلمية، اهتم بضبط النص والأعلام الواردة فيه ووضع الفهارس الفنية لأعماله المحققة، غير أن تحقيقه ليس بتحقيق العلماء، فهو لا يتعرض للقضايا المطروحة في المؤلفات المحققة بالمناقشة العلمية أو التعقب أو الشرح ونحو ذلك. نشرت له مكتبة وهبة (القاهرة) تحقيق كتاب **طبقات المفسرين** للداودي (– 945هـ)، **وطبقات الحُفَّاظ** لجلال الدين السُّيُوطِيّ (ط1: سنة 1393هـ/ 1973م)، و**طبقات المفسرين** للسيوطي (ط1: 1396هـ/ 1976م)، كما نشرت له أيضاً: **فضائل مصر** لعمر بن محمد بن يوسف، الكِنْدِيّ (ط1: 1391هـ/ 1971م) (بمشاركة د. إبراهيم العدوي)، ونشرت له مكتبة الأنجلو (القاهرة) (سنة 1979م) تحقيق **عجائب المقدور في نوائب تيمور** لابن عربشاه. ونشرت له مكتبة الخانجي (القاهرة) (بدون تاريخ) تحقيق كتاب **الوسائل إلى معرفة الأوائل** لجلال الدين السيوطي (بمشاركة إبراهيم العدوي أيضاً). ومن أعماله تحقيق كتاب **طبقات المفسرين** لأحمد بن محمد الأدرنه ويّ (ق 11هـ).

أما نسخته الإلكترونية الصادرة ضمن أسطوانة (مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية) عن (شركة التراث، عَمَّان) والتي اعتمدت على طبعة (وترقيم صفحات) دار الكتب العلمية بيروت سنة 1403هـ، فلا تعدو أن تكون عملاً تجارياً معيباً.[13]

[13] مثلاً: من عجب أن يستكثر المسئول عنها –مثلاً– مقدمة المؤلف والتي لم تزد على نصف صفحة فحذفوها!